

الوافي في الوفيات

ولما توفي C تعالى كنت بحلب فحصل لي ألمٌ عظيم زائد إلى الغاية وكتبت إلى ولده الخطيب كمال الدين محمد وإلى غيره من الأصحاب مرثي كثيرةً نظماً ونثراً ثم جمعت ذلك وسميته : ساجعات الغصن الرطيب في مرثي نجم الدين الخطيب ومما رثيته به قولي : من البسيط .

يا ذاهباً عظمت فيه مصيباتي ... بأسهمٍ رشقت قلبي مصيبات .
قد كنت نجماً بأفق الفضل ثم هوى ... فاستوحشت منه آفاق السموات .
سبقت من بات يرجو قرب خالقه ... ولم تزل قبلها سباق غايات .
بكى الغمام بدمع الورق مذ عقدت ... حمائم البان من شجوي مناحات .
ولطم الرعد خد السحب وانتشرت ... ذوائب البرق حمراً في الدجنات .
أصم نعيك سمعي عن تحققه ... وهان ما للليالي من مللمات .
جنت فيه إلى تكذيب قائله ... تعللاً بالأمانى المستحيلات .
وكدت أقضي ويا ليت الحمام قضى ... حسبي بأن الأمانى في المنيات .
وراح دمعي يجاري فيك نطق فمي ... فالشان في عبراتي والعبارات .
إن أبدت الورق في أفنانها خطباً ... فكم لوجدي وحزني من مقامات .
جرحت قلبي فأجريت الدموع دماً ... ففيض دمعي من تلك الجراحات .
لو كنت تفدى رددنا عنك كل ردى ... بأنفسٍ قد بذلناها نفيسات .
فآه من أكؤسٍ جرعتها غصماً ... وقد تركت لنا فيها فضالات .
نسيت إلا مساعيك التي بهرت ... عين المعالي بأنوارٍ سنيات .
ومكرماتٍ متى تتلى محامدها ... تعطر الكون من ريا الروايات .
وفضل حلم تخف الراسيات له وعز علا السبع المنيرات .
وكم مناقب في علمٍ وفي عملٍ ... أضحت أسانيدنا فينا صحيفات .
منها : من البسيط .

فأين لطفك بي إن هفوةٌ عرضت ... كأنا حسناتي في إساءاتي .
وأين فضلك إن وافى أخو طلبٍ ... فيخجل الغيث من تلك العطيات .
نبكي عليك وقد عوضت من كفنٍ ... ألبسته بثيابٍ سندسيات .
وما تلبثت في مثوى الضريح إلى ... أن صرت ما بين أنهارٍ وجنات .
تصافح الحور والولدان منك يداً ... كم أظهرت في الندى والفضل آيات .

من ذا يعيد دروس النحو إن درست ... ربوعها بالعبارات الجليات .
ومن لعلم المعاني والبيان ومن ... يبدي بعلميها سر البلاغات .
ومن يزف عروس النظم سافرةً ... قد حليت بعقودٍ جوهريات .
إذا أديرت على أسماءنا خلبت ... ألبابنا بكئوسٍ بابليات .
ويرقم الطرس أسطاراً فنحسبها ... سوالفاً عطفت من فوق وجنات .
ومن إذا بدعة عنت يمزقها ... سطا براهينه بالمشرفيات .
وإن أتت مشكلاتٌ بعدما اتضحت ... وأقبلت كالدياجي المدلهمات .
نضا نصول أصول الدين لامعة ... فيقطع الشبهات الفلسفيات .
ومن يفيد الوري في علمه حكماً ... تجلى ويبيدي رياضاً في الرياضات .
ومن يذيب دموع العين من أسفٍ ... إذا ارتقى منبراً بين الجماعات .
ويوقظ الأنفس اللاتي غدت سفهاً ... من لهوها والتصابي في منامات .
وتقتفيه إلى العرفان تاركةً ... قبيح ما ارتكبته من غوايات .
ليهن قبرك ما قد حاز منك فما ... ضمت حشا كل قبرٍ طاهر الذات .
وجاد تربتك الغراء ساريةً ... تحل فيها العقود اللؤلؤيات .
وكل يوم تحياتي تباكرها ... فتفضح النسومات العنبريات .
الصاحب قوام الدين بن الطراح .

الحسن بن محمد بن جعفر بن عبد الكريم بن أبي سعد الصاحب قوام الدين ابن الطراح .
أخبرني العلامة أثير الدين أبو حيان قال : هو من بيت علم وحديث ورياسة وله معرفة
بنحوٍ ولغة ونجوم وحساب وأدب وغير ذلك